الانوار

الجمعة ١٦ تشرين الأول ١٩٩٢

التواضع والكلمة

صديقتي الكلمة، الحرف يلتقي مع كل رفاقه في الابجدية حسب ما يريد الكاتب... فتكون الكلمة. هي تأتي بكل تواضع، لتضع نفسها في تطبيق عملي لكل معنى، ودون حرية اختيار منها، بل تكون الثل في الطاعة.

رفيقي القلم... ان ما يجسد الافكار بحاسة اللمس، لتراه حاسة البصر... وتنقله الى حيز التفكير مرورا بالفكر... مفتحا خلايا الدماغ البشري امام اطلالة العقل الواعي الذي يحفظ كل ما يرد اليه. فالقلم هو الوسيلة لنقل كل المعلومات، وكل الصور والرسومات... الخ. انت تمسك به... تدحرجه... تبريه»... تقلمه... وتبقى هذه المادة لينة... متواضعة بين يديك... مطيعة حتى لأصغر نقطة قد تسجلها، فالنقطة هي اصغر ما يمكن لكاتب او رسام او... ان يسجلها، وقد تكون انطلاقة كبرى؟ او تحديد موضوع او مكان... او جملة... فالدائرة لا يمكنها ان تكون دون محور، والمحور هو النقطة اي نقطة الوسط... والنقطة في وسط الدائرة هي قمة ومركز وانطلاقة التواضع... فالوصول اليها يأتي عن طريق نزع الانا... والعجرفة والتكبر... والتصلف! فعلى المرء أن يكون متواضعا صغيرا... ليدخل ويندمج في النقطة... واذا كبر يصبح مصيره الخروج من كل الدائرة... فكل ما تحفره بيدك... اعتبره رسالة وعي تضم الى خزان المعرفة والعلوم كافة...

صورتي الورقة... انطباع القارىء وشخصية الكاتب تلتقيان في انسجام فكري، من خلال صورة شعرية، او نثرية او ادبية... وقد تكون هذه الورقة تضج بفوضى غزلية... فالتواضع لا يضج الا بالخير! فالورقة هي ما تحمله من ثقل ادبي، عبر ذبذبات تجسدت عليها كتابيا. حتى اللون على الورقة ينزل بتواضع وبطاعة... فالطاعة هي روح التواضع... وتبقى حكمة التصرف هي قسطاس الانسان المنطلق لخدمة البشرية بدءا من نفسه.

البساطة في كل شيء، تقودنا الى تصرف حسن، واع... حكيم. البساطة هي في الاستيعاب والاحتواء.

فبساطة الابتسامة... تطفىء «انفجارا» على وشك ان يقع. فتكون المحتوى والمحتوى... فاسعى ان تكون بسمتك غير متآمرة على التواضع. بل اجعلها شعلة تزعج الظلمة ابدا.

المقابلة تتطلب موقفا ومواقف، فاسعى ان كنت ذا شأن او مسؤول، ان تحسن الاستقبال. فلا تضع السائل ان يخضع لموقف ذل امام عتبة دارك او مكتبك... فهذا يؤدي الى نسف كل ثقة كانت متوقفة، فانت تخسر مؤيدا لك... والطالب او السائل يفقد الامل بالعودة، ويأخذ انطباعا سلبيا عن كل مسؤول.

فالتكبر والتعجرف... اقوى من قتل الجسد.

ان الجسد مقدس... وقتله محرم. لكن مصيره المادي معروف ومحتوم.

الجسد يسكنه شعاع الهي... يمده بالطاقة وذلك من خلال تنظيم اعضاء الجسد اللا ارادية. فالجسم البشري فيه حواس خمس يستطيع الانسان التحكم بها... فليفعل ذلك باتضاع.

اما الدماغ... القلب... الرئتان... المعدة...الكلي... الكبد والعمود الفقري... الخ. فلولا تواضع الخالق لما استمر الانسان في الحياة... ولما نزلت منه قوة لكل انسان دون تمييز وبكل تجرد.

اليس التحكم بالاعضاء اللا ارادية ميزة تواضع من الخالق؟ مكون من اكثر من جسد ومادة... فالذل والاهانة تصل الى النفس البشرية من خلال اذلال المشاعر والافكار، مما يؤثر على النفس وهذا يبطيء من تقدم المسار الروحي.

فاسع لان يلتمس كل انسان التواضع.

فالخدمة هي تطبيق التواضع التام... بمقابل او دون مقابل. افتنازل الكلية. وهي تبقى نسبية. رغم انه لا نسبة بالتواضع.

فالتواضع هو عمل كامل... ينساب كما النور. فالنور لا يحجب عن اي مخلوق... نور الشمس المتواضع من عليائه... يغمرنا بدفئه، يمدنا بالحيوية والحياة.

هو تلك الزنبقة التي تزين كل دار، وتدخل كل مكان دون اذن.

اليست الجنائن صرخة الطبيعة المتواضعة.

اليس التواضع صرخة بحار انقذ غريقا؟

هو بؤبؤ العين... ينام حالما بما لم يصل اليه!

هو رب البيت يلج الباب مبتسما امام عائلته ابدا!

هو ذلك السائق الذي يحترم حقوق الاخرين... بتواضع فنه يقرأ قانون السير.

هو ذلك المسؤول الذي يشاطرك الالم والمعاناة.

ان الجمرة تحرق البخور... هي تصبح رمادا... اما رائحة البخور فتبقى تفوح ذلك في الارجاء اكثر.

هو ذلك الكرسي الهام الذي يبقى شاغرا رغم كل الحضور.

فالتواضع ميزة انسانية وصفة بشرية على الكل ان يطبقها بملء ارادته ودائما بحرية اختيار كاملة. فحرية الاختيار كانت درسا رسمها الخالق واعطاها الى كل بشري... وهذا تواضع الهي!

يترك لنا ان يفعل ما نشاء! ويحاسبنا ايضا بتواضع.

التواضع هو الحكمة في كل عمل... على الرغم من ان الحكمة لا تتواضع. والحكمة ان دلت... فهي تدل على مقدرة صاحبها بالاتزان الفكري مع ترجمة لقلب صادق في كل ما يبثه.

الكرمة بعناقيدها تتدلى متواضعة معطاء.

اية ثمرة تتدلى معطاء. حتى لو كانت «برية». فهي تخدم غير الانسان فيلقاها الساعي دون عناء.

قوتنا اليومي... الرغيف، سنبلة القمح الذهبية. كم هي متواضعة وكم تمر بمراحل من اجل هذا الانسان الحبيب.

كما الشلال يتدفق ويتنازل عن عليائه... كما دمعة تلاقي اخرى تنبعث من اغوار العين وتتدلى كجزء من تواضع النظر... المقهور او الفرح. فتمييز الدمعة من ساخنة الى باردة... تبقى متواضعة. فهي لو كانت حارة؟ فهي تستقي من الينبوع عينه !!التي يطلقها باردة. فالينبوع العالي يرد ساقية متواضعة تكون منهلا للعطشى.

اليست ركائز الاهرامات والاكروبول وهياكل بعلبك وغيرها متواضعة غير مرئية: العمل الكبير يأتي به السر الكبير.

فمهما تآمر الجهل على التواضع... يبقى هذا الاخير يستقبل كبار الكبار. كما كانت ذات يوم.. مع ذلك المذود المقدس.

ايلي ابو سمرة